مثل الإنسان بل إن شهواتها من المآكل والمشارب والمناكح أكثر وأدوم من شهوات الإنسان ، ثم إننا نرى أن جهال الناس وهو أكثر بهيمة ، وأقوى في هذه الملاذ من فضلائهم لذلك لم تكن هذه غاية الإنسان وليس بها كماله فليست سعادة .

والسعادة الخاصة ببني الإنسان هي أن تصدر أفعاله عنه بحسب الروية والتمييز وعلى ما يقتضيه العقل الذي امتاز به عن الحيوانات ، والسعادة المعنية موجودة متحققة لكل فرد من أفراد الإنسان ، فلا يختص بها أحد دون آخر غير أنها تختلف في الأفراد مرتبة ودرجة بحسب اختلاف درجاتهم في الإنسانية أي بحسب اختلاف شعورهم بالحسن والقبيح ومقدرتهم على تحصيل الفضائل ومزاولتها ولهذا قيل : فلان أكثر إنسانية من فلان (١) .

ويرى مسكويه أن من سقط عن هذه الرتبة لا ينبغي أن يسمى إنساناً إلا عن طريق التشبيه كما يسمى المصور صورة الإنسان إنساناً له لمشابهته في التخطيط فحسب .

هذا القدر من الإنسانية المشتركة بين جميع الأفراد هو أول مرتبة ن مراتب السعادة القريبة إن رتبناها ترتيباً تصاعدياً وآخرها إن رتبناها ترتيباً تنازلياً وبين أول مرتبة وآخرها مراتب كما قدمنا ، وقد أشار إليها حيث قال : وهذا المعنى موهوب للناس عامة بالفطرة والجبلة الأولى ، ويتفاضلون بحسب استعمالهم إياه (٢) .

---

(١) (السعادة) لمسكويه ص٣٧ ، وانظر (العقيدة والأخلاق) د. محمد بيصار ص٢٨٢ – ٢٨٥ ، لمزيد من الاستفادة .

(٢) المرجع السابق نفسه .

المطلب الثالث

النفس الإنسانية

في فلسفة (مسكويه) الأخلاقية والتربوية

لقد استهل مسكويه فلسفته التربوية والأخلاقية بالبحث في النفس الإنسانية لمعرفة أغوارها وطبيعتها وكوامنها ، ومعرفة قواها وكيفية صدور الفضائل والرذائل عنها ، وكانت نقطة الانطلاق لمذهبه وركيزة لمنهجه .

وفي هذا الصدد يقول مسكويه في بداية كتابه (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق) : (غرضنا من هذا الكتاب أن نحصل لأنفسنا خلقاً تصدر به عنا الأفعال كلها جميلة ، والطريق إلى ذلك : أن نعرف أولاً نفوسنا ما هي ؟ ، وأي شيء هي ؟ ولأي شيء أوجدت فينا ؟ أعني كمالها وغايتها ؟ وما قواها وملكاتها التي إن استعملناها على ما ينبغي بلغنا بها هذه الرتبة العلية) (١) .

ويرى أن (النفس جوهر بسيط ليس جسماً ولا جزءاً منه ولا عرضاً له فهي ليست جسما لأنها تستحيل ولا تتغير كالأجسام ، كما أنها تدرك جميع الأشياء بالسوية بلا فتور أو نقص أو كلال) (٢) .

فهي من خلال وجهة نظره كمال اول لجسم آلي ذي حياة بالقوة ، وقد سوى بين النفس والروح ، باعتبار أن الإنسان مركب من جسم مدرك بالبصر ونفس مدركة بالبصيرة ، قال تعالى : ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (٣) فالإشارة بالروح إلى النفس ، وإضافته تعالى الروح إليه تشريفاً لها (أي الإنسان) ، وعني بها النفس المذكورة في قوله تعالى : ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ (٤) ووجود النفس في الإنسان لا يحتاج إلى أن يدل عليه لوضوح أمره ، بل ينبه الجاحد لها والغافل عنها بأنها هي التي بحصولها في الجسم تحصل الحياة والحركة والحس والعلم والرأي والتمييز ، ويكون الجسم متصرفاً بها وحاملاً ومستحسناً ومستطاباً ومحبباً ، وبفقدها عدم هذه الأشياء فيصير جيفة يحتاج إلى عدة تحمله .

---

(١) المرجع المذكور ص٥ – ٦ والفوز الأصغر ص٣٣ – ٣٥ .
(٢) المرجع السابق ص٧ .
(٣) سورة ص : الآيتان (٧١ – ٧٢) .
(٤) سورة الأنعام : الآية (٩٣) .

والنفس في فكر فيلسوفنا محل الأعراض الروحانية كالجسم في كونه محلاً لأعراض الجسمانية ، وقد حث الله تعالى على التدبر في النفس والتفكر فيها . وجل معرفتها مقرونة بمعرفة الله تعالى .

وقالت الحكماء : قد ركب الله الإنسان تركيباً محسوساً معقولاً على هيئة العالم وأوجده شبه كل ما هو موجود في العالم حتى قيل : الإنسان هو عالم صغير ومختصر للعالم الكبير ، وذلك ليدل به على معرفة العالم ، فيتوصل بهما إلى معرفة صانعهما ، فغاية معرفة الإنسان لبارئه تعالى أن يعرف العالم فيعلم أنه موجد وأن له موجداً ليس مثله (١) .

ويقول مسكويه : وجميع أعضاء الحيوان في الإنسان وغيره إنما هي آلة مستعملة لغرض لميكن لينائه إلا بهذا الجوهر (٢) .

وأما كونها ليست عرضاً ، فلأن العرض محمول في غيره أبداً ولا قوام له بذاته وأيضاً فهي تقبل جميع الصور والمتضادات ، ولهذا الجوهر خاصة معينة وهي تشوقه إلى ما ليس من طباع البدن وحرصه على معرفة دقائق الأمور الإلهية والمعارف الإنسانية وانصرافه لها وإيثاره إياها على اللذات الجسمية .

وهذا دليل واضح على أنها أعلى وأكرم من الأمور الجسمية لأنه لا يمكن لشيء من الأشياء أن يتشوف إلى ما ليس من طباعه (٣) .

ولقد وصل مسكويه باستقرائه إلى التعرف على كمال الموجودات وأن لكل منها كمالاً خاصاً به وفي هذا الشأن يقول : لكل موجود كما يخصه وفعل لا يشاركه فيه غيره ، وهو ما صدر عن قوته المميزة والمروية فكل من كان تميزه أصح ورويته أصدق واختياره أفضل كان أكمل في إنسانيته (٤) .

---

(١) (الذريعة إلى مكارم الشريعة) لأبي القاسم الأصفهاني ص٧٥ – ٧٦ وقد تأثر الراغب بفلسفة مسكويه في مبحثه النفس ، انظر (فلسفة الأخلاق في الإسلام) د. محمد يوسف موسى ص١٣٥ .

(٢) (الفوز الأصغر) لمسكويه ص٣٥ ، طبعة بيروت ١٣١٩هـ .

(٣) (مناهج البحث الخلقي في الفكر الإسلامي) د. أحمد الشاعر ص٢٢٠، ٢٢١ بتصرف يسير .

(٤) (تهذيب الأخلاق) لمسكويه ص٣٥ .

المطلب الرابع

قوى النفس

في فلسفة (مسكويه) الأخلاقية والتربوية

من الملوم أن الحق سبحانه وتعالى قد جعل في الإنسان خمس قوى يدل على وجودها فيه ما يظهر من تأثيرها وهذه القوى :

قوة الغذاء : وبها النشأة والتربية والولادة .

قوة الحس : وبها الإحساس واللذة والألم .

قوة التخيل : وبها تصور أعيان الأشياء بعد غيبوبتها عن الحس .

قوة النزوع : وبها يكون اللب للموافق والهرب من المخالف ، والرضا والغضب والإيثار والكراهة وغيرها .

قوة التفكير : وبها يكون النطق والعقل والحكمة والروية والتدبر والرأي والمشورة وغيرها .

أما القوى المدركة منها فخمس : الحواس الخمس ، والخيال ، والفكر ، والعقل ، والحفظ .

وأما الحواس فلكل واحد منها إدراك مخصوص :

فاللمس عشر إدراكات : الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة واللين والخشونة والصلابة والرخاوة والثقل والخفة .

وللذوق سبع : الحلاوة والمرارة والملوحة والحموضة والحرافة والغوصة والتفاهة .

وللشم اثنان : الطيب والنتن .

وللسمع اثنان : الصوت البسيط والكلام المركب منه .

وللبصر أحد عشر إدراكاً : النور والظلمة واللون والجسم وسطحه وشكله ووضعه (أو رفعه) ، وأبعاده وحركاته وسكناته وأعداده .

فأدون هذه الإدراكات اللمس ثم الذوق ثم الشم ، فالنفس لا تكاد تستعين بها إلا فيما يعود نفعها إلى صلاح الجسم .

وأرفع الإدراكات : العقل ثم الفكر ثم التخيل ثم الحس إلا أن العقل والفكر يدركان الأشياء الروحانية .

فأما السمع والبصر فمتوسطان لأنهما يخدمان النفس والجسم وخدماتهما للنفس أكثر ويدركان الأشياء الجسمانية .

والتخيل متوسط بين العقل والفكر وبين السمع والبصر ، فيأخذه تارة من السمع والبصر ويسلم إلى العقل وذلك في حال اليقظة ، ويأخذ تارة من العقل والفكر ويسمله إلى السمع والبصر وذلك فيحال النوم .

ولما كان مبدأ تأثير هذه القوى من الدماغ قيل :

مسكن الفكرة وسط الدماغ ، ومسكن الخيال مقدمه ، ومسكن الحفظ والذكر مؤخرة ولما كان قوام الدماغ بل قوام الجسم كله من القلب الذي منه منشأ الحرارة الغريزية صار في كلام الناس يعبر عن هذه القوى تارة بالدماغ فيقال : لفلان دماغ إذا قويت منه هذه القوة المدركة ، وفلان خالي الدماغ إذا ضعفت فيه هذه القوى .

ولما كان أكثر إدراك الحقائق بهذه القوة المدركة وكانت الفكرة خادمة للعقل والتخيل خادماً للعقل والفكر تارة ، وللسمع والبصر تارة خص الله تعالى بالذكر القلب وهو أحد الطرفين ، والسمع والبصر وهو الطرف الآخر ، ولذلك عظم الله تعالى المنة على الإنسان بإعطائه إياه هذه الثلاثة وحمد من استعملها ، وذم من أهملها ولم ينتفع بها (١) .

قال تعالى : ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٢) .

---

(١) (الذريعة إلى مكارم الشريعة) ٧٧ – ٨١ .

(٢) سورة النحل : من الآية (٨٧) .

وقال سبحانه : ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (١) .

وهذه القوى الروحانية متعاونة في إدراكهن لرسوم المعلومات ، فإن الخيال يتصور عن المحسوس فتبقى في صورته الروحانية فينتقش بها كما تنقش الشمع بصورة الختم ، ثم يأخذ الفكر فيميز بعضها عن بعض بنور العقل ، فيبحث عن خواصها ومنافعها ومضارها ، ثم يؤديه إلى القوة الحافظة ، فإن أراد قولاً سلط عليه القوة الناطقة فيعبر عنه باللسان ، وإن أراد إبرازه فعلاً سلط عليه القوة العاملة فتوجده في الجوارح .

وفلسفة مسكويه التربوية والأخلاقية في بيانها لقوى النفس ترجعها لقوى ثلاث متباينة ، تقوى إحداهما وتصعب بحسب المزاج أو العادة أو الترتيب ، وهذه القوى هي :

القوة الناطقة : وهي التي تسمى (الملكية) وآليتها التي تستعملها من البدن هي الدماغ .

القوة الشهوية : وهي التي تسمى (البهيمية) وآليتها التي تستعملها من البدن هي الكبد .

القوة الغضبية : وهي التي تسمى (السبعية) وآليتها التي تستعملها من البدن هي القلب .

ويرى أن القوة الناطقة هي التي يتميز بها الإنسان عن البهائم ، ودليله على ذلك أن المعنى الموجود لها هو الذي يقال به فلان أكثر إنسانية من فلان وهي باقية دائمة البقاء ، أما النفس الشهوية والغضبية فتموت بموت الإنسان أي تبطل وتتلاشى (٢) .

ونلمس تأثر مسكويه عند عرضه لقوى النفس وملكاتها ، فإننا نراه ينهل من معين علم النفس لدى الإغريق وبخاصة ما أثر عن الفيلسوف أفلاطون ،

---

(١) سورة الأعراف : من الآية (١٧٩) .
(٢) (الفوز الأصغر) لمسكويه ص٣٤ .

فللنفس ثلاث قوى ، واحدة بها الفكر في حقائق الأمور ، وأخرى بها ما يتصل بالغضب والشجاعة من الأفعال ، وثانية وهي ما تسمى بالقوة الشهوية ويكون عنها ضروب اللذات الحسية وما يتصل بها . وهذه القوى سلف بيانها متعارضة ومتباينة وقوى إحداها تكون على حساب الآخرين ، وعوامل القوة والضعف ترجع إلى المزاج والجبلة أحياناً وإلى العادة وصنوف التأديبات أحياناً ، وكل قوة من قوى هذه النفس قد يسوء أو يحسن استعمالها تبعاً لبواعث وعوامل مختلفة ، فقد تجنح نحو الإفراط وقد تهبط نحو التفريط فيكون ذلك شراً ورذيلة ، وقد تكون معتدلة وسطاً لا إلى الإفراط ولا إلى التفريط فيكون ذلك خيراً وفضيلة ذلك على نحو ما سيتجلى من خلال عرضنا للفضيلة لدى مسكويه من خلال هذه الدراسة .

المطلب الخامس
مراتب قوى النفس
في فلسفة (مسكويه) الأخلاقية والتربوية

ثم يجلي مسكويه مراتب القوى النفسية وأنها ليست في مرتبة واحدة ، وإنما هي متفاوتة في الرتبة .

فأدونها النفس السبعية ، وأعلاها الناطقة وهي أفضلها وبها صار الإنسان إنساناً وباين البهائم ، وشارك الملائكة.

وللإنسان فضل على الحيوانات كلها في نفسه وجسمه :

أما فضله في نفسه فبالقوة المفكرة التي بها العقل والعلم والحكمة والتمييز والرأي ، فإن البهائم وإن كانت كلها تحس وبعضها يتخيل فليس لها فكر ولا روية ولا استنباط المجهول بالمعلوم ولا تعرف علل الأشياء وأسبابها ، وأما فضله في جسمه فباليد العاملة واللسان الناطق وانتصاب القامة الدالة وهذا كله على استيلائه على كل ما أوجد في هذا العالم وتسخير كل ما ومن في الكون لخدمة الإنسان ، فهو أفضل موجود بشرط أن يراعي ما به صار إنساناً وه القيام بمهمة الخلافة عن الله في كونه ، والناس أبناء ما يحسنون ، والإنسان يضارع الملك بقوة العلم والنطق والفهم ، ويضارع البهيمة بقوة الغذاء والنكاح فمن صرف عمته كلها إلى تربية الفكر بالعلم والعمل فخليق به أن يلحق بأفق الملك فيسمى ملكاً ربانياً كما قال تعالى : ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (١) ، ومن صرف همته كلها إلى تربية القوة الشهوية باتباع اللذات البدنية فخليق به أن يلحق بأفق البهائم بل أضل وأشر من الدواب .

والإنسان بين البهيمة والملك فشبهه بالبهيمة لما فيه من الشهوات البدنية ، وشبهه بالملك بما فيه من القوى الروحانية فهو وسيط بين جوهرين : وضيع ورفيع ولهذا قال تعالى : ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (٢) فالنجدان من وجه العقل والهوى ، والدنيا والآخرة ، والكفر والإيمان ، والحق والباطل ، والظلمة والنور ،

---

(١) سورة يوسف : من الآية (٣١) .
(٢) سورة البلد : الآية (١٠) .

والضلال والهدى ، فمن وفق للهدى وأعطى قوى لبلوغ المدى فراعى نفسه وزكاها فقد نال الفلاح في الدارين ، ومن حرم التوفيق فقد خاب في الدارين ، وقد وجد الإنسان لعمارة الأرض ، وعبادة الخالق ، وحمل أمانة الله تعالى في كونه (١) .

وقد تأثر مسكويه في فلسفته هذه بوجهة نظر أفلاطون والتي تقوم على أساس تقسيمه لقوى النفس حيث قسمها إلى قوى ثلاث : القوة الشهوية ، والغضبية ، والعاقلة وميز بينه ، وعزا لكل واحدة منها عملاً محدداً ، ووظيفة معينة ، وفضيلة خاصة .

وقد خطا أفلاطون خطوة فسيحة في مجال التحليل النفسي بعد سقراط عندما أدرك أن نتيجته كانت إحداث الانسجام أو الاتساق بين قوى النفس المختلفة ، وذلك بأن يخضع لحكم العقل الدوافع اللاعاقلة التي تهيمن على الدوام على النفوس التي أسيئ ضبطها وتضطر صاحبها إلى العمل بما يخالف نداء العقل .

ورد أفلاطون هذه الدوافع اللاعاقلة إلى قوتين متميزتين من قوى النفس هما : القوتان الشهوية والغضبية ، ويرد إلى القوة الشهوية جميع الرغبات التي تعزي بوضوح إلى أسباب بدنية نطلق عليها اسم (الشهوات) ، ويتصور أفلاطون القوة الثانية مصدراً عاماً لطائفة من الانفعالات التي لا يربط بينها علم النفس الحديث بوجه خاص ، ولكنها تتميز جميعها بخاصية واحدة هي الحض على العمل النشيط الميال إلى النزاع والخصام والغضب والشجاعة أو الإقدام وحب الشرف والحياء والنفور من العار (٢) .

ويرى أن المستوى الخلقي لهاتين القوتين يختلف اختلافاً بيناً ، فالقوة الغضبية هي الحليف الطبيعي للعقل في منازعات النفس ، وبتأثير المران

---

(١) انظر (الذريعة إلى مكارم الشريعة) ص٨٣ – ٩٨ لمزيد من الاستفادة .

(٢) راجع تفصيل ذلك في (تاريخ علم الأخلاق) د. هـ سد جويك ترجمه وقدم له وعلق عليه د. توفيق الطويل وآخر جـ١ ض١٢ – ٢١ ط١ نشر الثقافة سنة ١٩٤٩ . (أفلاطون) د. عبد الرحمن بدوي ص٢١٤ ، (تاريخ الأخلاق) د. يوسف موسى ص٧٧ ، ٧٨ نقلاً من (فلسفة الأخلاق عند مسكويه) د. فتحي الزغبي جـ١ ص٧٧ – ٧٩ بتصرف يسير .

المناسب تستطيع التكشف عن فضيلة من فضائلها الخاصة ، أما القوة الشهوية فهي أحط من تلك القوة بطبيعة الحال ، ولا تستطيع أن تتكشف عن فضيلة ما ، إذا استثنينا خضوعها لحكم العقل .

وقد صور أفلاطون الانسجام والتوافق بين قوى النفس ودور العقل بأن ضرب مثال عربة من طراز قديم لها سائق وجوادان أحدهما طيب والآخر خبيث ، فهذه العربة لا ينتظم سيرها إلا إذا سيطر السائق تماماً على هذين الجوادين فأطاعاه ، فهو يرمز إلى العقل بالسائق وإلى القوة الغضبية بالجواد الطيب الهادئ ، وإلى القوة الشهوية بالجواد الخبيث الشرس .

ولا يتحقق الانسجام والتوافق إلا بأن يحتل العقل مركز القيادة ، وتسوس القوة العقلية القوتين الأخريين وتسيطر عليهما .

وفي هذا الشأن – أيضاً – يقول أندريه كرسون : فإذا نظرت إلى النفس وجدت السائق هو العقل ، والحصان الطيب هو العواطف ، والحصان الخبيث هو الشهوة ، هذه النفس تنتظم إذا احتل العقل مركز القيادة ، فمنع العاطفة من أن تثور ، وألزم الشهوة ، هذه النفس تنتظم في الطريق السوي ، فإذا سارت الأمور على هذا النسق حصل الفرد على الصحة الأخلاقية وحاز كل الفضائل ... ثم ينتهي إلى القول بأن أفلاطون يرى أن الفرد يمتلك كل هذا لأن شئونه تسير تبعاً للعدل وهو التعادل بين القوى النفسية والانسجام بينها فكل جزء من أجزائه يقوم بما هو أهل له ، وأنه ما دام الأمر مالكاً كل هذا فإنه يتمتع بالخير الأسمى أو الأقصى وبالصحة والسعادة (١) .

ويرى مسكويه أن النفس بين عقلين ، وأن القوة الناطقة في الإنسان تنقسم إلى : قوة عالمة ، وقوة عاملة .

أي النفس بين : عقل علمي ونظري ، وعقل عملي .

والعقل النظري العلمي هو : قوة الذهن ويدرك الجزئيات والكليات من المعارف والعلوم ويصل به الإنسان إلى كماله العقلي .

---

(١) (المشكلة الأخلاقية والفلاسفة) ص٥٥ – ٥٧ بتصرف نقلاً من (فلسفة الأخلاق ..) د. فتحي الزغبي ص٧٩ ، ٨٠ .

أما العقل العملي فهو : الذي يؤدي إلى نظم الأمور وترتيبها ويصل به الإنسان إلى كماله الخلقي . والعقل النظري مقدم على العقل العملي .

وفي هذا يقول مسكويه : إن جزء النظر مقدم على جزء العمل إذا كان بجودة التمييز وقدرته يدرك الصواب فيكل ما يقصد معرفته (١) .

وقد تأثر (مسكويه) فيهذه النظرة بفلسفة أرسطو .

---

(١) (السعادة لمسكويه ص٥٧ ، انظر (مناهج البحث الخلقي في الفكر الإسلامي) د. أحمد الشاعر ص٢٢٣ .

المطلب السادس

(الفضيلة)

في فلسفة (مسكويه) الأخلاقية والتربوية

يعد مبحث الفضيلة أحد الدعائم الأساسية في (علم الأخلاق) بل هو الوجهة والغاية ذلك أن دراسة هذا العلم وما اشتمل عليه من مباحث وموضوعات تهدف في مجموعها ماهية الفضيلة والترغيب فيها والحث عليها وبيان شروطها ومميزاتها ثم إبراز أنواعها ، وبيان أمهات الفضائل التي ينبغي على الإنسان التمسك بها قولاً وعملاً ، وظاهراً وباطناً ، ثم توضيح الرذائل والنهي عنها واتقائها بغية فلاح الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة ، وما من فيلسوف من الفلاسفة إلا وعني بها في إجلاء فلسفته ، ومن هؤلاء الفلاسفة (مسكويه) ، وهذا يدفعنا إلى بيان فلسفته التربوية والأخلاقية .

تعريف الفضيلة لدى مسكويه :

الفضيلة عادة للإنسان يلتزم فعلها ، ويجتنب ضدها ، ولذا عرفها بعض الفلاسفة بأنها : (عادة فعل الخير) والرذيلة هي : (عادة فعل الشر) .

ومن ثم يرى مسكويه أن الفضيلة هيئة نفسية تصدر عنها الفضائل (١) .

وهي : تعود الإرادة تحقيق الخير واجتناب الشر في كل ما يصدر عنها من فعل أو قول أو اعتقاد (٢) .

وهذا يعني أنه ليس المراد بالفضيلة مجرد الفعل وحده ، وإنما المراد الهيئة النفسية التي يصدر عنها الفعل ، والفضائل تصدر عن القوى النفسية في الإنسان ، ومقياسها الاعتدال الذي هو الوسط الأخلاقي ، فالقوة الناطقة إذا اعتدلت كان منها الحكمة – وهي أم الفضائل – فهي وسط بين السفه والبله ، والقوة الغضبية إذا اعتدلت نشأ عنها الشجاعة وهي وسط بين التهور والجبن ، والقوة الشهوية إذا اعتدلت نشأ عنها العفة وهي وسط بين الشره والجمود (٣) .

---

(١) (تهذيب الأخلاق) لمسكويه ص١١٩ .
(٢) انظر (تاريخ علم الأخلاق) د. محمد يوسف وسى ص٧٧ ، ٧٨ .
(٣) المرجع السابق ص٧٨ ، ٧٩ بتصرف يسير .

ومن المعلوم أن قوى النفس كما ذهب السواد من الفلاسفة ومنهم أفلاطون ومسكويه الذي تأثر به وهي (شهوية ، وغضبية ، وناطقة أي عاقلة) والفضيلة الرابعة تنشأ من تعادل هذه القوى الثلاث السالفة ، وتعادلها يعني : توافقها وانسجامها بوساطة العقل فلا تبغي إحداهما على الأخرى بل تكون في تآلف وتعاضد وتلاحم ، وتكون الفضائل التي تنشأ عنها متساندة ومنسجمة كالأخوة يساعد بعضها بعضاً (١) .

والفضيلة لا تتحقق بفعل الخير مرة أو بصدور الخير عن الإرادة في وقت دون وقت ، ولكن لكي يكون الإنسان متصفاً بالفضيلة لابد وأن يكون متعوداً على فعلها وتصدر عنه صدوراً شبه آلي ، فلا يكفي في الإنسان أن يوصف بالصدق في موطن ويكذب في آخر بل لابد أن يكون صادقاً في المواطن كلها ، ومثل هذا يقال في كل فضيلة من الفضائل وفي جملة الفضائل جميعها فالمدار في وصف إنسان ما بفضيلة أن تكون هذه الفضيلة عادة له يلتزم فعلها ويجتنب ضدها .

وتعتبر العدالة في فلسفة (مسكويه) التربوية والأخلاقية جماع الفضائل كلها أن جميع الفضائل ترجع إليها ولن تشذ عنها .

والعدالة نوعان :

الأول : داخلي نفسي ويعني به : تعادل قوى النفس وانسجامها وهذه تسمى (بالعالة النفسية) .

والثانية : خارجية اجتماعية وهو ما يقع بين الأفراد وهو ما يسمى (بالعدالة الاجتماعية) والعدل وسط بين الظلم والانظلام ، أو الجور والمهانة .

ولا ريب في تأثر مسكويه في هذه النظرة بأفلاطون وأرسطو ، ولكنه يرى أن هناك فضيلة أخرى سامية هي : (الفضيلة الفلسفية) .

فإذا كانت الفضائل السابقة خاصة بالسلوك الإنساني ، فإن الفضيلة الفلسفية خاصة بالعقل هي فضيلة نظرية في الإنسان ، وهي طريق سعادته العقلية وبها ينزع الإنسان إلى معرفة الحقائق والعلوم فيسعد بالفضيلة الإلهية ويصل إلى كمال إنسانيته وسعادته القصوى ، ومن الفضيلة الفلسفية (الفن والعلم والفلسفة

---

(١) المرجع السابق ص٧٨ ، ٧٩ بتصرف يسير .

بنوعيها : النظري والعملي) ويرى مسكويه أن الفضيلة الخلقية تكتسب بالتربية والمران عليها وتمهد للفضيلة الفلسفية وهما تكمل للإنسان سعادته القصوى (١) ، وفي هذا الصدد يقول مسكويه :

من أراد أن تكتمل إنسانيته ويبلغ إلى الأمر الذي إياه قصد بخلق هاتين الصناعتين : أعني جزأي الحكمة النظري والعملي ليحصل له حقائق الأمور بالجزء النظري ومحاسن الأفعال بالجزء العملي (٢) .

شروط الفضيلة ومميزاتها أو سماتها :

للفضيلة شروط يجب توافرها حتى يصح أن يوصف الفعل بأنه فضيلة وفاعلة بأنه فاضل ويمكن بيانها وإجمالها فيما يلي :

أولاً : قدرة الفاعل وعمله على التمييز بن الفضيلة والرذيلة أو بين الخير والشر .

أي أن العمل لا يكون فاضلاً ولا يوصف صاحبه أو فاعله بأنه فاضل إلا إذا كان مسبوقاً بالعلم بفضيلته بمعنى : أن الذي يعمل الخير ولا يدري أنه خير لا يقال عنه إنه فاضل ولا يوصف فعله بأنه فضيلة شأنه شأن من حاد عن كلمة الوحي الإلهي وفعل خيراً في دنياه أو السكران والمجنون الذي يتبرع بكل أو بعض ماله لفعل خيري لا يعد تبرعه فضيلة ولا يوصف فاعله بأنه فاضل ، ومن ثم يجب على المرء أن يعلم أمهات الفضائل ، وكافة الرذائل ، ويعلم أصول المعارف والمعاملات والتأديبات ليتمثل بها ويحث عليها ويلتزم بها قولاً وفعلاً وظاهراً وباطناً ويتخلى عن الرذائل والفواحش ويجتنبها وينهي عنها ويتقي شررها ، كي يحصل على السعادة المرجوة في الدنيا والآخرة وتكتمل إنسانيته .

يقول مسكويه : أما الفضائل أنفسها فليست تحصل لنا إلا بعد أن نطهر نفوسنا من الرذائل التي هي أضدادها (٣) .

---

(١) (مناهج البحث الخلقي في الفكر الإسلامي) د. أحمد الشاعر ص٢٢٩ – ٢٣٠ .

(٢) (السعادة أو ترتيب السعادات) لمسكويه ص٥٨ .

(٣) (تهذيب الأخلاق) لمسكويه ص١٢.

ثانياً : النية والقصد (الإرادة) : ويشترط في الفضيلة وفاعلها النية والقصد إلى تعود الفضيلة ولن يتأتى له ذلك إلا إذا كان مريداً مختاراً لما يتصف به من الفضائل فالإرادة شرط بل هي أساس المسئولية والجزاء .

يقول مسكويه : (الخيرات هي الأمور التي تحصل للإنسان بإرادته وسعيه في الأمور التي لها أوجد الإنسان ، ومن أجلها خلق ، والشرور هي الأمور التي تصرفه عن هذه الخيرات بإرادته وسعيه أو كسله وانصرافه) (١) .

ثالثاً : التعود على الفعل والثبات عليه : كما لابد في الفضيلة إلى جانب العلم والإرادة لابد لها من الثبات عليها ودوامها لأنها بذلك تصبح عادة وسجية وتربي في النفس الإرادة القويمة نحو الفضائل والإقبال عليها والتمكن منها ودوام التمسك بها طوال حياته قولاً وفعلاً وظاهراً وباطناً .

ونظراً لأهمية الإرادة في الفضيلة والثبات نجد مسكويه يهتم اهتماماً بالغاً بتربية الأحداث ورياضة الصبيان وتنشئتهم على مكارم الأخلاق لتتطبع نفوسهم عليها منذ الصغر حتى يتعودوا عليها في مراحل حياتهم إلى مماتهم (٢) .

وبهذه الشروط : العلم والإرادة والثبات تتحقق الفضيلة الكاملة للإنسان فلا تنال منه الأحداث ، ولا يفزع من نوائب الدهر ، ولا يجزع لتصاريف القدر ، ولا يحزن أو يجزع على فقد محبوب ، ولا يتحسر أو ييأس على فوت مطلوب ، ولا يهش إلا بإظهار تلك الحكمة إلى أهلها ، ولا يرتاح إلا لمن ناسبه أو قاربه وأحب الاقتباس منه وهذه هي المرتبة التي من وصل إليها فقد وصل إلى آخر السعادات وأقصاها (٣) .

وجملة القول : إن مسكويه قد تأثر في مبحث الفضيلة بأقوال من تأثر منهم بالفلاسفة الذين أشرنا إليهم سلفاً ومنهم أرسطو الذي يرى أن الفضيلة ليست فطرية وإنما هي تكتسب بالتربية والتعليم والمران والتعود ، وضرورة تعويد الأطفال الأخلاق الحميدة منذ نعومة أظفارهم حتى يشبوا عليها وتكون لهم عادات

---

(١) المرجع السابق ص١٤ .
(٢) انظر رسالة مسكويه الخاصة (بتربية الحداث ورياضة الصبيان) .
(٣) انظر (تهذيب الأخلاق) لمسكويه ص٨٨ .

يلتزمون بها في سلوكهم مبيناً أن التقليد والأمثال والسير الفاضلة ذات أثر فعال في التربية الأخلاقية وتكوين الفضائل(١) .

كما أن مزاولة الفضيلة وتعودها والثبات عليها لذة ، واللذة ترشد إلى الفضيلة وتقترن بها ، وتبدو قيمة اللذة السلوكية والعقلية وصلاحيتها أداة للتربية والتهذيب (٢) ويمكننا إبراز أهم سمات الفضيلة والتي تحدد طبيعتها لدى مسكويه فهي :

أولاً : ترفع إلى السرور بها .

ثانياً : أنها مكتسبة وتستفاد بالتعليم والمران عليها والتأدب بها .

ثالثاً : أنها وسط بين طرفين كلاهما رذيلة .

ويرى مسكويه ويعني عناية تامة ببيان الوسط الأخلاقي لأنه أمر صعب وعسير ، وفي هذا الصدد يحدثنا قائلاً :

(إذا انحرفت الفضيلة عن موضعها الخاص بها أدنى انحراف قربت من رذيلة أخرى ، ولم تسلم من العيب بحسب قربها من تلك الرذيلة التي تميل إليها ، ولهذا صعب جداً وجود هذا الوسط ثم التمسك به بعد وجوده أصعب) (٣) .

وهذا الوسط رغم ذلك في نظر مسكويه وفلسفته أمر إضافي اعتباري ونسبي يختلف من إنسان لآخر بل يختلف باختلاف أحوال الإنسان نفسه ، والفضيلة مع ذلك أقرب إلى أحد الطرفين من الآخر .

وفي هذا الشأن يقول مسكويه :

(ليس الوسط في كلا الطرفين على شريطة واحدة)(٤) .

---

(١) انظر (تاريخ الفلسفة اليونانية) د. يوسف كرم ص١٨٩- ١٩٠ ، (تاريخ الفكر الفلسفي) : أرسطو جـ٢ د. محمد علي ريان ص٢١٧ - ٢٢٢ ، (الأخلاق) لأرسطو ترجمة د. عبد الرحمن بدوي ص٨٥ - ٨٦ ، (فلسفة الأخلاق عند مسكويه) د. فتحي الزغبي جـ١ ص٩٦ - ٩٨ لمزيد من الاستفادة .

(٢) (تهذيب الأخلاق) ص٢٩ .

(٣) المرجع السابق ص٧٩ بتصرف يسير .

(٤) المرجع السابق ص١٢٢.

ويقول د. محمد يوسف موسى موضحاً (١) : هذا الوسط الذي يكون الفضيلة يظهر من كلام مسكويه أنه ليس الوسط الحقيقي الذي نجده في الحساب مثلاً ، هو هدف صعب إصابته ، كما أن التمسك به دائماً أصعب ، إنه وسط يختلف باختلاف الأفراد ، ويعرف بالإضافة إلى الطرفين اللذين يحيطان به .

على أن مما يعرض للخاطر ويتطلب البحث ، ونحن نتكلم عن الفضيلة وأنها وسط ، أن بعض الفضائل قد يزيد عن الوسط ، وبعضها قد ينزل عنه ، ويكون الخير في ذلك كله ، فكيف هذا ، وقد قلنا : إن الفضيلة وسط بين طرفين التجاوز عنه ذميم ؟

مثلاً : إعطاء الغير حقه واقتضاء المرء الحق منه هو العدل الوسط بين الظلم والانظلام ، وتنازل المرء عن بعض حقه للغير هو تفضل محمود مشكور ، وربما كان خيراً من العدل المجرد ، مع أنه يزيد عن الوسط والزيادة عنه كالنقصان خروج عن الفضيلة كما قيل .

وهنا نجد مسكويه لا يرتج عليه في الإجابة ، إنه يرى التفضل لم يخرج عن شرط العدالة التي هي وسط بين طرفيها المعلومين ، غاية الأمر أنه احتياط جازم من صاحبه ليأمن التقصير ويصيب الوسط ، وبخاصة أن الهيئة النفسية التي يصدر عنها التفضل هي نفسها الهيئة التي تصدر عنها العدالة (٢) .

ومسكويه في هذه الإجابة لم يصب المخر ، فقد يكون التفضل احتياطياً فيما يشتبه فيه العدل أما في الأمور التي هي كمسائل الحساب في دقتها وضبطها ، أو التي هي من قبيل الحساب كشريكين لكل منهما مائة من الجنيهات فرض أحدهما أن يأخذ لنفسه أربعين لنفسه أربعين فقط فلا أدري كيف ولماذا يكون الاحتياط ؟

ولعل لنا من كلام مسكويه إجابة أخرى أدنى للصواب وإن لم يرد أن تكون إجابة أخرى ، لقد ذكر في هذا الموضع ، أن الوسط في كلا الطرفين عن الأخلاق ليس على وتيرة واحدة ، ففي البذل الزيادة عن الوسط إذا لم تصل

---

(١) فلسفة الأخلاق في الإسلام ص٨٧ – ٩٢ بتصرف .
(٢) تهذيب الأخلاق ص١٠٨ ، ١٠٩ .

للتبذير خير من النقصان فيه ، وفي العفة النقصان عن الوسط أفضل من الزيادة أخذا بالحزم في الناحيتين (١).

إذا لا يكون صحيحاً ما سبق أن قرره مسكويه من أن الهيئة النفسية التي يصدر عنها الفضل هي الهيئة التي تصدر عنها العدالة ، هذا والعدالة ليست في الحقيقة جزءاً من الفضيلة العامة ، إنها الفضيلة العامة، إنها الفضيلة كلها إذ كانت الفضائل الأخرى ليست بدونها شيئاً مذكوراً ، وضدها وهو الجور ليس جزءاً من الرذيلة بل هو الرذيلة كلها .

وإذا كان للعدالة هذا المكان ، فمتى سعد الإنسان بها وأزانت بها نفسه أشرقت لأنها جمعت فضائل النفس كلها ، وبذلك تؤدي أفعالها الخاصة بها على أفضل وجه ويصير الإنسان أقرب ما يكون من الله (٢) .

وتمام النفوس كما يرى مسكويه هو باستكمال العلوم والاتحاد بالعقل الفعال (٣) . كما يرى : أن إرادة الإنسان لما يضره غير ممكن فإن فعل شيئاً من ذلك كأن يسيء الاختيار أخر نفسه من حيث يريد النفع لها ومثال ذلك الحاسد الذي يضر نفسه معتقداً نفعها بالخلاص من المحسود وأذاه (٤) .

ولذا نجده يقول : ولذلك نجد العاقل إذا تغيرت أحواله تلك فصار من الغضب إلى الرضا ومن السكر إلى الإفاقة ، تعجب من نفسه ، وقال : ليت شعري كيف اخترت تلك الأفعال القبيحة ويلحقه الندم ، وإنما ذلك القوة التي تهيج به تدعوه إلى ارتكاب فعل يظنه في تلك الحال صالحاً له جميلاً به ، فإذا سكن وراجع عقله رأى قبح الفعل وفساده (٥) .

كما يرى : أن الأشياء التي تحب منها اللذيذ ومنها النافع ومنها الخير ، وأن من الناس من لا يعرف الأفضل فالأفضل من هذه الأشياء التي تتجه لها

---

(١) المرجع السابق ص١٠٤
(٢) المرجع السابق ص١٠٨
(٣) الفوز الأصغر ص٤٢ .
(٤) التهذيب ص١٠٦ ، ١٠٧ .
(٥) تهذيب الأخلاق ص١٠٧ .

النفس وتعتبر غايات لها ، ولهذا ربما لا يدري الواحد من هؤلاء كيف يحسن إلى نفسه التي هي محبوبته ، فيقع في ضروب من الخطأ لجهله بالخير الحقيقي (١).

أما من عرف لنفسه كرامتها واختار لها الخير الذي يناسب جزاءها الإلهي وهو العقل فقد أحسن إليها وأنزلها في الشرف الأعلى وأهلها لقبول الفيض الإلهي واللذة الحقيقية التي لا تفارقه أبداً ، وإذا كان بهذا الحال فهو لا محالة يفعل سائل الخيرات (٢) .

وبهذا نرى مسكويه قد انحاز إلى سقراط في أن الفضيلة المعرفة ، وترك أرسطو في هذه المسالة التي لها خطرها المعروف .

---

(١) المرجع السابق ص١٢٩ .

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة .

المطلب السابع

الخير في فلسفة مسكويه

ولو استعرضنا نظرة مسكويه للخير باعتباره قطب الجاذبية في فلسفته والغاية منها وهي السعادة ، نراه يوضح لنا أغراض جميع الموجودات وغاياتها ويعرض للخير وأنواعه ثم يفرق بينه وبين السعادة ثم يجلي لنا طبيعة السعادة وعناصرها المكونة لها وهو في عرضه يستقرئ الآراء وقد يوافق بعضها أو ينتخب بينها ويوفق بينها وذلك على النحو التالي :

فمسكويه يقرر إن : الإنسان من حيث هو إنسان يختص بأفعال وقوى وملكات بها يكون تمام إنسانيته وكمال فضائله ، وهي الأمور الإرادية التي تتعلق بها قوة التفكير والتمييز ، والنظر فيها يسمى الفلسفة العملية ، فكل من كان تمييزه أصح ورويته أصدق ، واختياره أفضل ، كان أكمل في إنسانيته ومن ثم فالخير عنده هو الغاية المقصودة من الكل أي من النوع الإنساني كله ، وجميع الناس ولا يكفي فيه واحد دون واحد ، والخير ما يبلغ به الكائن المريد غاية وجوده أو كمال وجوده .

ويعقب على ذلك د. بيصار فيقول : فالغرض المقصود من وجود الإنسان إذا توجه إليه بكل أعماله وجعل الهدف الذي تصوب إليه أقواله الإرادية هو الذي يجب أن يسمى به الإنسان خيراً أو سعيداً ، أما من عاقه عن الوصول إلى ذلك الغرض من عوائق أخرى فهو الشرير الشقي (١) .

إذن فالخيرات هي : الأمور التي تحصل للإنسان بإرادته وسعيه في الأمور التي لها أوجد الإنسان ومن أجلها خلق ، والشرور هي : الأمور التي تعوقه عن هذه الخيرات بإرادته وسعيه أو كسله وانصرافه (٢) .

والسعادة خير إضافي خاص بواحد واحد من الناس باختلاف الغايات والمقاصد فالخير إذن أعم من السعادة ولابد من الإرادة ولذا فهي تختلف لتحصيله .

---

(١) العقيدة والأخلاق ص٢٧٨ .
(٢) تهذيب الأخلاق ص١٤ .

ثم نجد مسكويه يقسم الخيرات متأثراً بفكر أرسطو إلى أربعة أقسام :

- خيرات شريفة وهي التي شرفها من ذاتها وتجعل من اقتناها شريفاً وهي الحكمة .
- خيرات ممدوحة وهي مثل الفضائل والأفعال الجميلة الإرادية .
- خيرات بالقوة مثل التهيؤ والاستعداد لنيل الأشياء التي تقدمت .
- خيرات نافعة وهي جميع الأشياء التي تطلب لا لذاتها بل ليتواصل بها إلى الخيرات .

ويجلي مسكويه نظريته هذه بوجه آخر فيقول : الخيرات منها ماهي غايات ، ومنها ما ليست بغايات ، والغايات منها ما هي تامة ومنها ما هي غير تامة فالتي هي تامة كالسعادة ، وذلك أنا إذا وصلنا إليها لم نحتج أن نستزيد إليها شيئاً آخر ،والتي هي غير تامة فكالصحة واليسار منقبل أنا إذا وصلنا إليها احتجنا أن نستزيد فنقتني أشياء أخرى ، وأما التي ليست بغاية البتة فكالعلاج والتعلم والرياضة (١) .

ويرى مسكويه أن الخيرات متحققة من جميع المقولات فمنها ما هو في الجوهر (ما ليس بعرض) كالله تبارك وتعالى فهو الخير الأول من حيث إن جميع الأشياء تتحرك وتسعى إليه بالشوق ، ومن حيث أن مآل الخيرات الإلهية من البقاء والسرمدية والتمام منه وحده .

وأما في الكمية فكالعدد المعتدل والمقدار المعتدل ، وأما في الكيفية فكاللذات والإضافة كالصدقات والرياسات والأين والمتى كالمكان المعتدل والزمان الأنيق البهيج والوضع كالعقود والاضطجاع والاتكاء الموافق والملك كالأموال والمنافع والانفعال كالسماع الطيب وسائر المحسوسات المؤثرة والفعل الأمر ورواج الفعل (٢) .

ومن ثم نرى مسكويه قد حقق الخيرات في سائر المقولات وهذا قد نجد فيه بعض الأفكار له وإن كان معتمداً في أساسه إلى حد ما على تقسيم أرسطو ، ويرى مسكويه أن الناس منهم من هو خير بطبعه وهذا قليل ، وهذا الصنف من

---

(١) تهذيب الأخلاق ص٨٩ .
(٢) العقيدة والأخلاق ص٢٨٠ .

الناس لا يصير إلى الشر بحال من الأحوال ، ومنهم من هو شرير بطبعه وهو لايصير إلى الخير بحال ن وبين هذا وذاك قوم على استعداد إلى الخير ينتقلون إليه إذا تعهدوا بالتربية والتهذيب أما إذا خالطوا أشرار فاسدين فإلى الشر مصيرهم وإلى الغواية طريقهم ويقول : بوجوب التعاون لتحصيل الخير فالفطرة الإنسانية من مقتضياتها أن يتعاون الناس على تحقيق خيراتهم مجتمعين ، كل يقوم بما يختص به من فروعها ونواحيها لذلك كان من المحتم بل من أوجب الواجبات على الناس أن يحب بعضهم بعضاً بدون تلك المحبة ينفرط عقد المجتمع وتذهب كثير من الخيرات ، تأمل قول : والإنسان لا يبلغ كماله إلا مع أبناء جنسه وبمعونتهم ، وينبغي أن يكون علم الأخلاق مقرراً لما ينبغي أن يكون عليه سلوك الإنسان في الجماعة (١) .

ونلمس من خلال العرض السالف لمسالة الخير الأقصى نرى مسكويه قد تأثر تأثراً واضحاً بما ورثه من الثقافات الإغريقية ، كما نرى فيه أيضاً نزعة الاختيار والتلفيق وروح النقد لما يعرض من آراء وإن كان يعزوه الترتيب في العرض وضم أطراف الموضوع الواحد بعضها في بعض متسلسلة بنظام والخير أنواع متعددة قد يتداخل بعضها في بعض وقد يتمايز بعضها عن بعض وهذا ما يدفعنا إلى بيان :

مسكويه ونظرته الفلسفية في السعادة :

قبل بيان رأيه في السعادة نجده في فلسفته الأخلاقية والتربوية لبيان حقيقة السعادة يستعرض آراء من سبقه من الفلاسفة أمثال فيثاغورث وسقراط وأفلاطون والرواقيين وأرسطو ثم يعرفنا بوجهة نظره في السعادة وأنها : تمام الخيرات وغايتها ونهايتها ، ولما كان يصدر في رأيه هذا عن ثنائية الإنسان وتركبه من المادة والروح لذا فهو يرى : أن السعادة محتاجة في تمامها إلى خيرات البدن وخيرات أخرى خارج البدن والسعادة عنده لا تكمل إلا في حياة أخرى .

فالسعادة هي الخير التام في نفسه بحيث لا يحتاج من بلغه إلى شيء آخر وراءه ولكن لا يوصل إليه بسعادات جزئية نسبية بعضها مرده وبعضها لأمور خارجة أخرى ، وهذه السعادة التامة في الفضائل وبها أي فبالنفس وحدها

---

(١) نقلاً من المرجع السابق ص٢٨١ ، تهذيب الأخلاق ص٦٣ – ٦٥ .

فالفضائل كافية للسعادة من حازها استغنى عن غيرها من الخيرات سواء فيذلك خيرات البدن وغيره ، ثم نجده يذكر رأي أرسطو في السعادة التي يشترط لها لتكون تامة خيرات في البدن كالصحة ولطف الحواس وجودة الرأي وسلامة الفكر وأخرى خارجة عنه كحسن الأحدوثة والثروة والجاه والتوفيق والنجاح في الأمور فمن كمل له هذا كله بعد أن يكون فاضلاً كان سعيداً تمام السعادة وإلا كان حظه منها بمقدار حظه من تلك الأمور (١) .

ويرى مسكويه أن للإنسان في السعادة مرتبتان :

الأولى : مرتبة الأشياء الجسمانية وفيها يكون الإنسان متعلقاً بأحوالها السفلى سعيداً بها وهو مع ذلك يطالع الأمور الشريفة مشتاق إليها .

والثانية : مرتبة الأشياء الروحانية والتعلق بها مع مطالعة الأمور البدنية واعتبارها .

والأولى أنقص من الثانية وصاحبها غير كامل على الإطلاق وغير سعيد السعادة التامة أما صاحب المرتبة الأخيرة فهو السعيد التام السعادة وهو الذي يتوفر حظه من الحكمة فهو يقيم بروحانية مع الملأ الأعلى ويستنير بالفوز الإلهي وبها يكون سروره واغتباطه فيخلوا من الآلام والحسرات وهذه الرتبة من وصل إليها فقد وصل إلى آخر السعادات (٢) .

ويرى مسكويه أن السعادة لها مقومات لا تتم إلا بهذه الخيرات الضرورية وهي :

- صحة البدن ولطف الحواس .
- الثروة والأعوان .
- حسن الأحدوثة والسيرة .
- النجاح والتوفيق في الأمور كلها .
- صحة التفكير وسلامة الاعتقاد وحسن المشورة .

كما يرى أن السعادة القصوى إنما تكون بالجمع بين جزأي الحكمة النظري والعملي أي التمتع بالفضائل الخلقية والعقلية .

---

(١) تهذيب الأخلاق ص٦٥ – ٦٦ .
(٢) تهذيب الأخلاق ص٨٩ – ٩٣ .

وفي الأولى وضع كتابه التهذيب ، وفي الثانية وضع كتابه السعادة كما تحدث بذلك أيضاً في الفوز الأصغر وفيه يقول : إن تحصيل السعادة على الإطلاق يكون بالحكمة ، والحكمة جزأن : نظري وعملي ، فبالنظري يمكن به تحصيل الآراء الصحيحة ، وبالعملي يمكن تحصيل الهيئة الفاضلة التي تصدر عنها الأفعال الجميلة وبهذين بعث الله الأنبياء (١) .

ومن ثم نرى أن نظرية مسكويه في السعادة تقوم على فكرة الغائية والكمال في الموجودات ، فهو يرى أن لكل موجود كمالاً يخصه وفعلاً يشاركه فيه غيره . والإنسان أشرف الموجودات ولا يتحقق كماله وسعادته إلا بالجمع بين جزأي الحكمة النظري والعملي فيحقق كماله القريب بالجزء العملي وكماله البعيد بالجزء النظري .

ثم يصنف مسكويه السعادة مطلقاً إلى :

- سعادة عامة بين الإنسان والحيوان كالمأكل والمشرب وهي ما تسمى باللذة وأكثر الناس يسميها غاية .
- سعادة خاصة بحسب كل فرد وفرد وهي التي يختص بها صاحب العلم أو صناعة ويتفاوت فيها الناس على قدر مراتبهم في العلوم والصناعات .
- سعادة خاصة بالإنسان من حيث هو إنسان وهي صدور أفعاله عنه بحسب الروية والتمييز .
- سعادة خواص الخواص من الناس وهي السعادة القصوى التي تجمع بين جزأي الحكمة (٢) .

ويرى مسكويه أن للسعادة سمات يمكن بيانها على النحو التالي :

أنها غاية ونهاية وليست في حاجة إلى غيرها فهي الغرض الأخير والكمال الأقصى وهي التمام الذي إذا بلغنا إليه لم نحتج معه إلى شيء آخر .

أنها قدسية استمدت قدسيتها من الجزء الإلهي في الإنسان وهو العقل الذي به الانقياد والتمييز وبه يسمو الإنسان إلى الملائكة .

---

(١) الفوز الأصغر ص٦٦ .

(٢) انظر السعادة ص٤٣ ، والتهذيب ص٩٦ .

إنها مصحوبة بلذة وسرور إلا أن هذه اللذة روحية وليست هي اللذة البهيمية التي سبق رفضها وهذه اللذة الروحية تمتاز بأمور منها : أنها ذاتية لا عرضية فهي تتبع من الإنسان ذاته ولا تلحقه عرضاً كاللذة الجسمية .

ومنها أنها عقلية لا حسية فهي مصدرها العقل بجزأيه النظري والعملي .

ومنها : أنها فعلية لا انفعالية فهي لذة فاعلة مصدرها القوة العاقلة ، وليست منفعلة تصدر عن الجسم وانفعاله وتغيراته وبهميته .

ومنها أنها إلهية حيث تصدر عن الجزء الإلهي في الإنسان وهو النفس الناطقة (١) .ويرى مسكويه مخالفاً لرأي ارسطو مخالفة تامة أن السعادة ليست قصراً على الحياة الدنيا وحدها وإنما هي متحققة في الآخرة بل إنها لا تكمل إلا فيها حيث تكون كما يقول : قرة العين التي قال الله عنها غلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين وتبلغه إلى اللذات التي لم ترها عين ولا سمعتها أذن ولا خطرت على قلب بشر ، ولابد للسعادة التامة من الحكمة ولا تتحقق إلا بكمال جزأيها والإنسان متى تحلى به صدق نظره وصحت بصيرته وأمن الخطأ في الاعتقاد ووصل إلى ما يتشوف إليه من حقائق ، وآية ذلك أن تسكن النفس ويطمئن القلب وتذهب الحيرة التي تحول بين العاقل وبين الراحة بله العادة (٢).

كما شرط كمال القوة العملية وهو الكمال الخلقي وهو الذي يكون من اعتدال قوى النفس حتى لا تتغالب هذه القوى ويبغي بعضها على بعض وحتى تتساند وتتساعد فتصدر عنها الأفعال منظمة مرتبة كما يجب وفي ذلك الفضيلة والسعادة التي يشعر بها كل جزء من النفس بعد أن انسجمت وسادتها العدالة (٣).

وهكذا إذا أمكن للمرء أن يحصل لنفسه هذين الكمالين أو هذين الجزءين من الحكمة (النظري والعملي) فقد استحق أن يسمى حكيماً وفيلسوفاً وقد سعد السعادات التامة .

وآية هذا السعيد السعادة التامة الذي جمع من الحكمة طرفيها وتحلى بسر بالها أن يحس أنه مقيم بروحانيته مع الملأ الأعلى مستنير بالنور الإلهي متنعم

---

(١) تهذيب الأخلاق ص٨١ .
(٢) تهذيب الأخلاق ص ٣٧ ، ٩٧ .
(٣) المرجع السابق ص٣٣ .